جلال الدين سعيد

# سبينوزا والكتاب المقدس

## الدين والأخلاق والسياسة

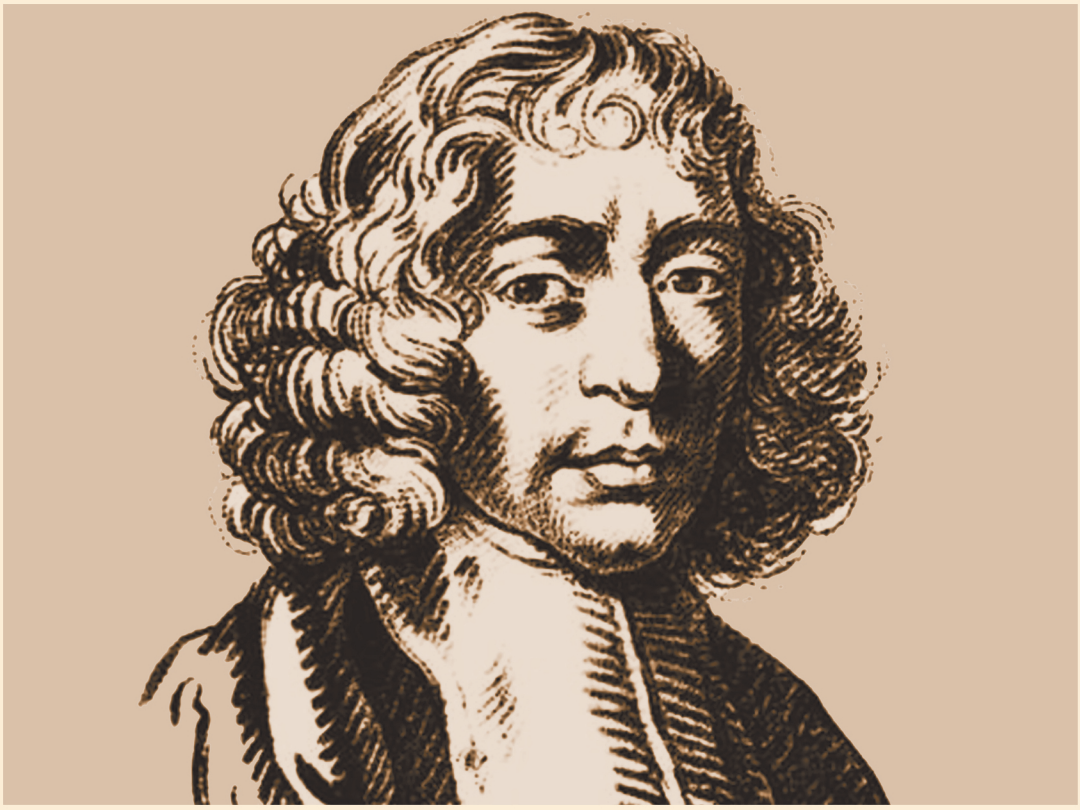

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث

جلال الدين سعيد

# سبينوزا
# والكتاب المقدس

## الدين والأخلاق والسياسة

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث

# المحتوى


**سبينوزا، حياته وآثاره** ..... 7

**مقدمة** ..... 15

**الباب الأوّل: المسألة الدّينية** ..... 25

الفصل الأوّل: رسالة في اللّاهوت والسياسة - النّقد الفلسفي ..... 27

الفصل الثاني: في مبادئ تأويل الكتاب المقدّس - النقد الهرمينوطيقي 59

**الباب الثاني: المسألة الأخلاقية** ..... 93

الفصل الأوّل: الأخلاق والإيتيقا والخلاص بالعقل ..... 95

الفصل الثاني: «الحدّ الأدنى للعقيدة» والخلاص بالإيمان ..... 123

الفصل الثالث: الفرح والسعادة والخلاص في الدّنيا ..... 147

**الباب الثالث: المسألة السياسية** ..... 167

الفصل الأوّل: «الحق في تنظيم الشؤون الدينية» ..... 169

الفصل الثاني: العصيان والطاعة ..... 187

الفصل الثالث: الحرب والسلم ..... 209

**خاتمة** ..... 227

**المصادر والمراجع** ..... 239

**الفهرس** ..... 245

# سبينوزا، حياته وآثاره

وُلد باروخ سبينوزا في مدينة أمستردام، في (24 تشرين الثاني/ نوفمبر 1632م)، في عائلة يهودية برتغالية لاجئة في هولندا. كان يوجد في أمستردام عدد كبير من العائلات اليهودية التي هجرت إسبانيا والبرتغال، حيث اضطُهدت ومُنعت من ممارسة طقوسها الدّينية، واضطرّت إلى الاختيار بين البقاء واعتناق الديانة المسيحية، أو المغادرة عارية من كلّ ما تملك. وكانت هذه العائلات تؤلّف معاً جماعة متعاضدة متماسكة حافظت على لغتها الأصلية، وأسّست لنفسها كنيساً خاصّاً، ومدارس دينيّة، وجمعيات خيرية.

وعلى الرغم من بقاء الجالية اليهودية في أمستردام متقوقعة على نفسها إلى حدّ ما، فإنّها لم تستطع أن تصدّ وفود اليهود المرتدّين الذين كانوا يرغبون في العودة إلى دينهم بعدما اعتنقوا المسيحية طمعاً في البقاء في إسبانيا والبرتغال، والمحافظة على أملاكهم هناك؛ هؤلاء كان يطلق عليهم اسم *المارانو* (Marranos- Les Marranes)، وكانوا عرضة، في هولندا نفسها، لتصلّب الأحبار وتزمّتهم.

لكن ما من شكّ في أنّهم وجدوا أنفسهم يعيشون في ظلّ دولة متسامحة إلى أبعد حدّ، وتمنح لمختلف الكنائس والطوائف حرّية غير معهودة في مختلف بلدان أوربا الأخرى. فقبالة العقيدة الكالفينية الرّسمية، كان يُسمح ببقاء الكاثوليكية الرومانية، وأيضاً بوجود مختلف الطوائف البروتستنتية المنشقّة عن الكالفينية، كالأرمينيوسيين (Arminiens) والمعاتبين

(Remontrants)، أو المعارضة لها أصلاً، كاللّوثيريين (Luthériens)، والمينونيين (Mennonites) والكواكرس (Quakers) والسوسينيين (Sociniens)، والقائلين بتجديد العِماد (Anabaptistes)؛ ولا نغفل عن ذكر المجمعيين (Collégiants)؛ إذ كانوا أصدقاء لسبينوزا، وكانوا يسعون إلى الجمع والتوفيق بين مختلف الطوائف الدّينية، ويدعون إلى عبادة باطنية خالية من كلّ تشدّد وتطرّف. كتب جوزيف مورو واصفاً هذا الوضع المتحرّر والمريب في آنٍ فقال: «في بيئة روحية بمثل هذا التنوّع كان يتعذر على العقيدة الدينية أن تبقى على سنّة واحدة؛ بل كانت على العكس من ذلك تُسبّب القلق والحيرة والبحث المستمر عن الديانة الأفضل؛ فالتوبة والهداية والترحال من ملّة إلى أخرى كانت أموراً متداولة بين المسيحيين؛ وحتى الطائفة اليهودية نفسها فقد كانت تشهد من العائدين إليها بقدر ما تشهد من المرتدّين؛ ونخصّ بالذكر اليهودي أوريال دا كوستا (Uriel da Costa) الذي، بعدما اعتنق المسيحية، ارتدّ عنها وعاد سرّاً إلى اليهودية، والتحق ببني قومه في مدينة أمستردام؛ غير أنّ خروجه عن التعاليم الأرثوذكسية وخصوماته مع أحبار اليهود قد جرّه كلّ هذا إلى الانتحار، سنة (1640م)»[1].

وسط هذا المناخ الدّيني المتحرّر نسبيّاً، أراد والد سبينوزا أن ينشئه تنشئة دينية، فبعثه إلى مدرسة حاخام مشهور يُدعى مورتيرا[2] (Morteira) فتعلّم على يديه اللغة العبرية، وتلقّن أصول **التلمود**؛ ثمّ التمس دراسة اللّغة اللاتينية لدى طبيب يُدعى فان دن إنده (Van den Ende)، ممّا أضاء في عينيه نوراً جديداً، وساعده على اكتشاف فلاسفة القرون الوسطى، وعلى رأسهم توماس

(1) مورو، جوزيف، سبينوزا والسبينوزية، المنشورات الجامعية الفرنسية، سلسلة ماذا أعرف؟، باريس، الطبعة الفرنسية، 1971م، صفحة 8.

Moreau,Joseph, Spinoza et le spinozisme, Paris, PUF, Collection Que sais-je?, 1971.

(2) سوف يصبح هذا الحاخام من ألدّ أعداء سبينوزا، وسوف يبذل قصارى جهده من أجل إقناع القضاة بنفيه من المدينة بعدما قضت الكنيسة بطرده من الطائفة اليهودية.

الأكويني وابن ميمون، وفلاسفة عصر النّهضة، ومن بينهم مارسيل فيتشينو وجيوردانو برونو، وفلاسفة العصر الجديد من أمثال بيكون وهوبز وديكارت.

ونظراً إلى ما أظهره سبينوزا، منذ صغر سنّه، من شدّة في الحِجاج كانت تحيّر رجال الدّين وتفحمهم وتثير سخطهم عليه، فإنّه سرعان ما انعتق من ربقة الكنيس اليهودي، فخابت آمال الأحبار التي علّقوها عليه طويلاً، واضطرّهم الأمر، بعد محاولات فاشلة لردعه بالوعد والوعيد، إلى فصله عن طائفتهم وحرمانه من حقوقه الدينية، وكان ذلك في (27 تموز/يوليو 1656م)[1]. وبإيعاز من الأحبار، حُكم عليه بحظر الإقامة، فلجأ إلى إحدى ضواحي أمستردام، بعد ما لقيه من محاولة اغتيال من طرف بعض المتعصّبين، وبعد تنازله التلقائي عن حقوقه في تركة أبيه على إثر ما دبّرته له أخته من دسائس دنيئة لحرمانه من الميراث.

وبعد مدة قضاها في أوفركرك (Ouwerkerk)، حيث كان لا بدّ له من تعلّم حرفة يقتات منها، وحيث برع في صقل الزجاج الذي تصنع منه عدسات المجهر والمقراب، استقرّ سبينوزا عام (1661م) بقرية رينسبرغ (Rijnsburg) قُرب لايد (Leyde)، دون أن يقطع الصلة بأصدقائه القدامى الذين بقوا له أوفياء إلى آخر حياته، وهم: سيمون دي فريس (Simon de Vries)، وبيار بالنغ (Pierre Balling)، ويارغ يلس (Jarrig Jelles)، ولويس ماير (Louis Meyer))، وجان بوفمستر ( Jean Bouwmeester).

شرع سنة (1661م) في تأليف (**رسالة في إصلاح العقل**)، إلا أنّه توقّف عن إنجازها، وانتقل سنة (1663م) إلى فوربرغ (Voorburg)، حيث أصدر الكتاب الوحيد الذي يحمل اسمه وهو (**مبادئ فلسفة ديكارت**)، ويتبعه في

(1) يسمّى هذا النوع من العقاب الحِرْم (بالعبرية (Herem)، وبالفرنسية (Excommunication))، وهو أشدّ عقاب يمكن أن يُسلّط على الفرد الذي يفقد كامل حقوقه، حتّى أنّه يصبح غريباً في مجتمعه؛ فلا أحد يعاشره، أو يتعامل معه، أو حتّى يقترب منه أكثر من مسافة بعض الأمتار.

المجلد نفسه كتاب (**أفكار ميتافيزيقية**). ولعلّ اهتمام سبينوزا بأحداث الساعة هو ما شغله عن إتمام الرسالة (**في إصلاح العقل**)، وما عطّل إنجاز (**علم الأخلاق**)، من أجل تأليف الرسالة (**في اللّاهوت والسياسة**) (1670م). ولقد صدرت هذه الرسالة خفيّة الاسم، نظراً إلى ظروف القمع والاضطهاد التي كانت سائدة آنذاك، وهي ظروف حثّت سبينوزا على الرحيل إلى مدينة لاهاي، حيث صديقه وحاميه يان دي فيت (J.de Witt) الذي حدّد له معاشاً بمئتي فلورين. وعلى إثر غزو جيوش لويس الرابع عشر لهولندا، استولى الحزب الأورنجي على الحكم بعد أن أثار الجمهور ضد الأخوين يان وكرنليوس دي فيت اللّذين وقع اغتيالهما، والتنكيل بهما بأبشع الطرق، ممّا أثار استياء سبينوزا وسخطه الشديد. وكان قد أعدّ لائحة خطّ عليها: «منتهى الوحشية!»، وخرج ليعلّقها فوق جدران المدينة، لولا اعتراض صاحب نُزله، فان دار شبيك، وإقناعه بالعدول عن ذلك.

وتلقّى سبينوزا، سنة (1673م)، عرضاً من أمير بافاريا للتدريس في جامعة هايدلبرغ، فرفض هذا العرض خوفاً من أن يحدّ ذلك من حرّيته الفكرية، حيث كان ردّه كالآتي: «لمّا كان التعليم العمومي لا يستهويني أبداً، تراني لا أقدر على اغتنام هذه الفرصة الرائعة، رغم طول التفكير في هذا الموضوع، فأنا أعتقد، أوّلاً، أنّ التفرغ لتعليم الشباب سوف يثنيني عن مواصلة أعمالي الفلسفية، ومن جهة أخرى إنّي أجهل الحدود التي ينبغي أن تقف عندها حرّيتي في التفلسف حتى لا أظهر بمظهر من يريد الإخلال بالديانة الرسمية (...). ترى، إذاً، سيّدي، أنّ ما يمنعني ليس الطمع في ثروة أعظم، وإنّما هو عشق الهدوء الذي قد أحافظ عليه إذا أمسكت عن الدروس العمومية»[1].

(1) سبينوزا، مراسلات، ترجمة جلال الدين سعيد، ضمن مجلّد يحتوي على مبادئ فلسفة ديكارت وأفكار ميتافيزيقية ومراسلات، نشر المركز الوطني للترجمة، تونس، 2015م، رسالة رقم 48، إلى لويس فابريسيوس، بتاريخ 30 آذار/مارس 1673م.

وفي نهاية تموز/يوليو (1675م)، بادر بطبع (**علم الأخلاق**) بعد خمس عشرة سنة قضاها في تأليفه، إلّا أنّه سرعان ما عدل عن ذلك لمّا بلغه أنّ بعض الأعداء كانوا يتربصون به الدوائر. أمّا (**الرسالة السياسية**)، فقد وافاه الأجل قبل أن ينهيها، في الواحد والعشرين من شباط/فبراير (1677م). وفي السنة نفسها قام بعض أصدقائه بنشر مؤلّفاته دون ذكر اسم الناشر ومكان الطبع، مع الاكتفاء بالحرف الأوّل من اسم سبينوزا ولقبه.

❊ ❊ ❊

كانت حياة سبينوزا، على قصرها، خصبة بما أنتجه الفيلسوف من الكتب والرسائل التي دارت على عدد من المسائل. غير أنّه لم ينشر في حياته سوى كتابين اثنين؛ أحدهما فقط كان يحمل اسمه، هو (**مبادئ فلسفة رينيه ديكارت**) وملحقه (**أفكار ميتافيزيقية**) (نشر في أمستردام سنة 1663م)، بينما صدر ثانيهما، وهو (**رسالة في اللّاهوت والسياسة**)[1]، خفيّ الاسم، وعلى الرغم من أنّه نُشر في أمستردام سنة (1670م) فقد كُتب على الغلاف أنّه طبع في هامبورغ في ألمانيا.

وبعد وفاته، نشر أصدقاؤه مجموعة من مؤلّفاته تحت عنوان (**المؤلفات المخلّفة**)، مع ذكر اسم المؤلف بحروفه الأولى فحسب. وتحتوي هذه (**المؤلفات المخلّفة**)، حسب الترتيب، على (**علم الأخلاق**)، و(**الرسالة السياسية**)، و(**رسالة في إصلاح العقل**)، و(**المراسلات**)، و(**موجز في النّحو العبري**). ولقد جاءت هذه المؤلفات باللّغة اللاتينية ما عدا بعض الرسائل التي تُرجمت، في مرحلة لاحقة، عن اللّغة الهولندية. وباستثناء الترجمة الهولندية التي أصدرها غلايزميكر (Glazemaker) للمؤلّفات المخلّفة، لم

(1) الغالب على الظنّ أنّ هذه الرسالة صياغة جديدة ومتطوّرة لـ: رسالة دفاع ألّفها سبينوزا إبّان طرده من الطائفة اليهودية.

يُعد نشرها من جديد طيلة القرن الثامن عشر، فلم تنشر إلّا في القرن الموالي الذي شهد طبعات مختلفة لها؛ أهمّها على الإطلاق طبعة فان فلوتن ولاند (Van Vloten & Land) (من سنة 1882 إلى سنة 1884م). وتحتوي هذه الطبعة، بالإضافة إلى المؤلّفات المذكورة، على (**رسالة في قوس قزح**)، ورسالة في بعض الصفحات عن (**حساب الحظوظ**)[1]، ومراسلات جديدة لم يقع نشرها في الطبعة السابقة؛ لأنها كانت مفقودة، وأُضيف إلى هذه الطبعة أيضاً كتاب مفقود لسبينوزا، اكتشفه فان فلوتن في نسخة أولى عام (1851م)، وفي نسخة ثانية عام (1861م) قبل أن ينشره سنة (1862م)، وهو (**رسالة موجزة في الله وفي الإنسان وسعادته**). ومع أن طبعة فان فلوتن ولاند تعدُّ طبعة ممتازة، إلّا أنّ طبعة كارل غبهارت (Carl Gebhardt, 1924) النقدية أصبحت مفضّلة عنها في نظر الجميع، ومنذ سنة (1986م) أصبحت طبعة الإيطالي فيليبو منييني (Filipo Mignini) هي المألوفة.

أمّا الطبعات والترجمات باللّغة الإنجليزية، فمنها ترجمة بويل (A. Boyle) لكتابي (**علم الأخلاق**) و(**رسالة في إصلاح العقل**)، وترجمة روبنسن (Robinson) لـ: (**الرسالة الموجزة**)، وأيضاً ترجمة الرسالة نفسها من قبل وولف (A. Woolf)؛ وتوجد أيضاً ترجمة لأعمال سبينوزا الرئيسة قام بها إلويس (R. H. M. Elwes).

وأما الترجمات الفرنسية، فمنها ترجمة (**علم الأخلاق**) التي أعدّها في بداية القرن الثامن عشر الكونت دي بولانفيليي (Le Comte de Boulainvilliers)، والتي نشرت سنة (1907م)، وترجمة لمجموع أعمال سبينوزا، نشرت في القرن التاسع عشر، وهي من إعداد سيسي (Saisset) وبرات (Prat). أمّا الترجمة الدقيقة والصارمة، التي تعدُّ إلى يومنا هذا مرجعاً

(1) يتّفق الباحثون الآن على أنّ هاتين الرسالتين هما من وضع مؤلّف آخر غير سبينوزا، قريب من فكره؛ ولذا لم تقع برمجتهما ضمن الأعمال الكاملة التي هي بصدد إعادة التحقيق والترجمة في فرنسا وإيطاليا وهولندا.

كانت علاقة سبينوزا بالمؤسسة الدينية علاقة مريبة، فبعد أن تبحّر في اللغة العبرية، وأصول اليهودية، وأعدّ نفسه للتقاليد الحاخامية، طُرد من الكنيس اليهودي؛ لأنه انتقد العقائد الدينيّة والكتب المقدّسة، لكن نقده لم يكن موجّهاً ضدّ الشعور الدّيني والورع والتقوى الحقيقيين، بقدر ما كان يقصد به المؤسّسة الدّينية.

كان سبينوزا يحمّل ثلاثة أشخاص مصائب البشرية كلّها؛ فالأول ذلك الذي يرضى بوضعه البائس ويبقى أسير انفعالاته الحزينة، ويلقّبه بـ العبد؛ والآخر من ينتحب ويتأسّى بسبب عواطف العبد الحزينة، وهو الكاهن؛ والثالث من يسعد ويفرح لضعف الإنسان وهونه وعجزه، ويغتنم الفرصة للسّطو على الأجسام والنّفوس، وبسط نفوذه على مجتمع العبيد، وهو الطاغية.

ويرى سبينوزا أن دواء هذه الحالات يكون بمحاربة الفكر الخرافي والقضاء عليه، ومنع رجال الدّين من إعادة نشره وتأجيجه، والفصل بين الدّين والدولة حتّى لا يطغى صاحب السلطة، ويتذرّع بالدّين، أو يطغى رجل الدّين، ويحتمي بالدولة.

إنّ سبينوزا لا ينكر الدّور الذي يؤديه الدّين الحقّ في بناء هويّة الجماعة سياسياً ودينياً. فالعقل والدّين يسعيان إلى الهدف نفسه؛ المتمثل في تنظيم حياة النّاس. لكن هناك حدوداً للعقل وحدوداً للدّين، وهي حدود موضوعية، حيث توجد صعوبة في العمل بتعاليمهما ومبادئهما، صعوبة عمليّة يشهد بها التاريخ وتقرّها التجربة. فما الحلّ إذاً؟ وعلام يقوم تصوّر سبينوزا لنظام الحياة في الدين والمجتمع ونظام الحكم في الدولة؟

**جلال الدين سعيد: باحث تونسي متخصص في الفلسفة**

ISBN 978-614-8030-49-9
9 786148 030499

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للنشر والتوزيع